

الموت

الموسم

بقلم: زواهر نور علي

كانت قلعة الموت مركز دولة للاسماعيلية في إيران وغيرها من المناطق المجاورة ابتداء من عام ٤٨٣ للهجرة، الموافق لعام ١٠٩٠ ميلادية. وقد حكم الائمة الاسماعيليون قلعة الموت حتى عام ٦٥٤ هجرية ١٢٥٦ ميلادية عندما اجتاحتها المغول ودمروها وفتكوا بعدد كبير من السكان الاسماعيلية فيها. لقد كان الشطر الأول من القرن الخامس الهجري (القرن الإسلامي عشر الميلادي) في العالم الإسلامي فترة حافلة بالتغيرات والتطورات.

ولعل أهم هذه التطورات المستجدة هو قيام امبراطورية عسكرية على يد الأتراك السلاجقة الذي ينتمون أصلاً إلى بلاد آسيا الوسطى، وقد رافقت قيام دولة السلاجقة هؤلاء تغيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية هامة.

ومن جهة أخرى عمل الجمود الفكري والعقائدي الذي ران على الديار الإسلامية حينئذ، جنباً إلى جنب مع بعض التغيرات الأخرى، على إضعاف الامبراطورية الإسلامية من الداخل شيئاً فشيئاً، وفي تلك الفترة، كانت الديار الإسلامية تتعرض أيضاً للغزوات الصليبية، إلى أن جاء المغول أخيراً واطاحوا بالامبراطورية الإسلامية وادخلوا العالم الإسلامي في عصور الانحطاط الحضاري.

وكانت قلعة الموت تدخر مكتبة تزخر بالنفائس ذاع صيتها حتى أن عطا الله الجويني المفكر المعادي للاسماعيلية لم يستطع أن يخفي اهتمامه بالاطلاع على مدخراتها.

وقد ظلت مفاهيم الاسماعيلية الروحية واتجاهاتها التي تبلورت في تلك الفترة تؤثر بصورة خفية غير معلنة وغير مباشرة بالافكار الصوفية والشعر الفارسي والتركي حتى القرن التاسع عشر. لقد أخذت شواطئ بحر الخزر ومنطقة الموت تحظى، شيئاً فشيئاً، بعيد الفتح العربي، بأهمية متزايدة، إذ ارتبط بهذه المناطق ائمة الزيدية- وغيرهم، ولكن لم يلعب أي من هؤلاء دوراً هاماً في تاريخ منطقة الموت، إلى أن استولى عليها حجة ايران سيدنا حسن الصباح لصالح الأمام الفاطمي المستنصر بالله (توفي عام ٤٨٧هـ. الموافق ١٠٩٤م).

وقد أيد اسماعيلية ايران الإمام نزار ابن الإمام المستنصر بالله وواصلوا الدعوة لامامته وعقيدته في ايران، عدد من أهم العلماء والزعماء الذين نجحوا بجهودهم مجتمعة في بث الدعوة الاسماعيلية في اصفهان ومنطقة الموت في بلاد الديلم وقلع كثيرة أخرى في فارس وسورية.

وقد وقع اختيار سيدنا حسن الصباح على حصن الموت ليكون مقراً له، وقد أقيم هذا الحصن، الذي لم يبق منه الآن سوى خرائب متآكلة، على مرتفع ضيق يعتلي قمة صخرة مرتفعة في قلب جبال البرز، التي تمتد بطول ٣٠ ميلاً ويعرض ثلاثة أميال في أعرض أجزائها. ويرتفع موقع «حصن الموت» أكثر من ستة آلاف قدم فوق سطح البحر، وينتصب الحصن على صخرة سامقة الارتفاع، فقاعدة الحصن ترتفع عن قاعدة الصخرة بضع مئات من الأقدام.

وليس هناك من سبيل للوصول إلى الحصن إلا عبر ممر ضيق متعرج شديد الانحدار، وكانت طريق الوصول إلى الصخرة تلك عبر أخدود نهر الموت الضيق الذي يمر ما بين صخور هائلة مرتفعة تشمخ نحو السماء بصورة عمودية، وتبدو أحياناً وكأنها معلقة فوق الأخدود.

ويقال أن الذي بنى هذا الحصن هو أحد ملوك الديلم، فذات يوم كان هذا الملك يصطاد فأطلق نساً مدرباً على الصيد من قيده فحط هذا النسر على هذه الصخرة، فأدرك الملك القيمة الاستراتيجية الكبيرة لموقع هذه الصخرة، وأمر في الحال ببناء حصن عليها «ودعا هذا الصحن «ألوه أموت» ومعناها في لغة الديلم «معلمة النسر» (ابن الأثير).

وهناك كتاب آخرون يرجحون ترجمة هذا الاسم بعبارة (عش النسر) وأن كان هذا في رأينا هو أقل احتمالاً، ويعتقد الدكتور ايفانوف أن اسم الموت يرجع إلى زمن قديم جداً، وأنه ينتسب إلى اللغات غير الآرية التي انقرضت منذ عهد بعيد، والتي كانت تستخدمها بعض القبائل في القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد.

وأيا كان التفسير الصحيح لمعنى اسم «الموت»، فإن هذه القلعة قد أعيد بناؤها في عام ٢٤٦ هجرية الموافق ٨٦٠ ميلادية.

وعندما أتاه سيدنا حسن الصباح كانت تحت سلطان أحد حكامها واسمه مهدي الذي كان قد انتزعها من أيدي السلاجقة.

وقد استولى عليها سيدنا حسن الصباح في عام ٤٨٣ للهجرة الموافق ١٠٩٠ ميلادية وجعلها مقراً لدعوته.

وقد انشأ فيما بعد دولة مستقلة تتكون من مواقع قوية في المقاطعات الواقعة حول الموت الكائنة قرب دامغان في قومس ومن مدن عديدة في قهستان إلى الجنوب من خراسان. وكان علاوة على ذلك زعيم معظم الاسماعيليين الواقعيين تحت حكم السلجوقيين في إيران وبلدان الهلال الخصيب كما كان له عدد من الانصار بين النزاريين في مصر. وقد حكم الائمة الاسماعيليون الذين ينتسبون لفرع النزاريين هذه المنطقة، وكان اتباعهم يسمون الاسماعيلية النزاريين.

وقد اتسم تاريخ الدولة الاسماعيلية بعداوة دائمة ومستمرة بين الاسماعيليين والسكان المحيطين وكانت هذه العداوة تجد تعبيراً لها في المجازر المتكررة التي كانت تشن على كل من تحوم حوله الشكوك أنه اسماعيلي في أية مدينة من المدن.

وعندما كان يتم قتل أحد القضاة أو أحد الامراء على يد الجماهير كانت تبعة ذلك تلقى، عادة، على الاسماعيليين، وبالتالي كانوا يوصمون بشتى الألقاب والأوصاف المقذعة، ولم يكن القتل، بحد

ذاته، في تلك الأيام أمراً مستهجنأ أو نادراً... وليس هنالك أي دليل أو برهان على أن مادة الحشيش المخدرة قد استخدمت بأية صورة من الصور للمساعدة في عمليات الاغتيال.

لقد توفي حسن الصباح في عام ٥١٧ هجرية الموافق لعام ١١٢٤ ميلادية، تاركاً القيادة من بعده لأحد قادة قواته واسمه بزرگ أمید ليصبح حاكماً على إيران، وبعد وفاة هذا خلفه في القيادة ابنه محمد وذلك في عام ٥٣٢ هـ - ١١٣٨ م.

وخلال هذه السنوات أنشغل قادة الاسماعيليين أما برد هجمات السلاطين السلاجقة ولاسيما سنجر ومحمود أويشن الهجمات المحلية على خصومهم في المناطق الجبلية المجاورة أو المدن المجاورة مثل قزوين، وقد أفلح الاسماعيليون في هذه الفترة في الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون في سورية.

وفي عام ٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م. أعلن على الملأ تنصيب الإمام الاسماعيلي النزازي خليفة. وقد ظلت علاقات هذا الإمام الخارجية كما كانت في عهد اسلافه، ولكن فترة من السلام والهدوء النسبي قد حلت بعد ذلك.

وفي فترة تالية، تولى مقاليد أمور الاسماعيليين في سورية سيدنا راشد الدين سنان الذي نظم الاسماعيليين تحت امرته. ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى بدأت الغزوات الصليبية، فأتى الصليبيون من انطاكية وتقدموا بسرعة في السهل الساحلي السوري جنوباً، وأسسوا دويلاتهم في المناطق الإسلامية، وعندما جاء صلاح الدين الأيوبي اختار أولاً أن يحطم قوة الاسماعيليين في سورية ويتقدم في مناطقهم قبل أن يحارب الصليبيين ويشن حربه عليهم، ولكن سرعان ما تبين له أن الاسماعيليين كانوا أقوىاء في حصونهم وقلاعهم، واضطر صلاح الدين في نهاية المطاف إلى إقامة علاقات صداقة مع راشد الدين سنان، وقد قام الاسماعيليون تحت امرته بمهاجمة الصليبيين وطردوهم من المناطق الإسلامية، وقد ظل الاسماعيليون في سورية وبلاد الفرس يحتفظون بمواقعهم المنيعه دافعوا منها عن الإسلام بنجاح إلى أن جاءت قوة أخرى طاغية وهم المغول الذين حرضهم في واقع الأمر كبير القضاة في قزوين على تدمير الاسماعيليين وقلاعهم وحصونهم.

وفي عام ١٢٥٦ قاد هولاكو خان زعيم المغول جيشه نحو إيران، وبتشجيع من المسلمين أخذ يشن هجماته على قواعد الاسماعيليين قهستان وغيرها، ولكنه لم يحقق سوى نجاح محدود بادئ الأمر، فقد كان الاسماعيليون بتحصنون في قلاع كثيرة، ولذلك أيقن هولاكو انهم ليسوا فريسة طرية اللحم، وأنهم قد يسببون له متاعب كثيرة، إلا أنه واصل شن هجماته عليهم ودمر جميع حصونهم وقلاعهم. وقد تم تدمير حصن الموت في عام ١٢٥٦ ميلادية حيث جرى ذبح الكثير من الاسماعيليين. وقد استعاد الاسماعيليون السيطرة على حصن الموت في عام ١٢٧٥..

ولكن سيطرتهم هذه لم تدم طويلاً، ومنذ ذلك الوقت استمر انمة الاسماعيلية واتباعهم في الوجود ليس كسلطة مدنية أو عسكرية، وإنما فقط كطائفة دينية في بلاد الفرس وافغانستان واسيا الوسطى والهند وباكستان وافريقيا. وأمام الاسماعيلية حالياً هو الاغاخان شاه كريم الحسيني (المولود في ١٣ كانون الأول - ديسمبر ١٩٣٦).